الإسلام وإشكالية الشعر

د/ حسن بن فهد الهويمل

الفنّ بكل مفرداته وعلاقته بالإسلام.. قضية مهيعها طويل ضبابي، متعرج لا يكاد يستبين منعطفاته إلا القلة النادرة من الباحثين ولا يتوقى مخاطر المجازفة فيه إلا العالمون، وهو محفوف بكل احتمالات التعارض، ملئ بالإشكاليات الناتجة عن المجازفة بالأحكام، والممارسة العاطفية والتصرف الابتساري. فطائفة من الباحثين يقطعون بضدية الاسلام للفن بكلّ أشكاله وأنواعه. ويأتي الشعر من مفردات الفن، ومن ثم لا يجدون حرجًا من القطع بأن الإسلام ضد الشعر، ويسوقون الأدلة التي يمنحونها القطعية في ثبوتها ودلالتها ويقدمون بين يدي ذلك موقف الإسلام من بعض مفردات الفن كالتصوير والنحت والغناء والموسيقى.

وابتسار الشواهد وتوجيهها لخدمة الرؤية الانفرادية يوحي بأن الإسلام ضدّ الفن وضدّ تربية الذوق الجمالي. وهذه الضدية تمتد لتحول بين الإنسان ونوازعه الغريزية. ومجمل هذه الآراء تنظم الإسلام في سلك المذاهب الوضعية التي فشلت في مراحلها الأولى في التطبيق؛ لأنها فعلا وضعت في معزل عن استكمال حاجات الإنسان. وإذ لا نقطع بمثل هذه النوايا لكل الفئات التي ترى أن الإسلام ضدُّ الفن بكل مفرداته إلا أننا متأكدون بأن مؤدى هذه الآراء ونتائجها لا تخرج عن هذه الاحتمالات.

وإشكالية الصراع ماثلة في تعمد فصل الشاهد من سياقه ليكون أقوى في الاستدلال. وتلك ممارسة فيها طعن للمصداقية. فالمفكر النزيه يتحامى الوقيعة بالمخادعة والمغالطة، ونصوص الشرع لا تُفصل من سياقها، ولا تعزل عن مناسباتها وإن كانت العبرة بعموم الدلالة لا بخصوص السبب، ومثل هذه الممارسات تنطوي على تعمد الإيهام الذي لا يليق، أما الذين يُصدرون أحكامهم من باب التحفّظ أو الورع أو قصور الفهم بشمولية الإسلام وثبات أحكامه فهؤلاء ـ وإن كان لهم خطرهم ـ قد ينزعون إلى الحقّ متى بان لهم، على أن هناك فئات من المفتين يصادرون قدرتهم الاستيعابية في سبيل خنوعهم المذهبي والتزامهم بفتيا من سلف دون النظر في مبلغ هذه الفتيا من الحق.

ولا أحسبنا بحاجة إلى فرز الفئات المعارضة وتصنيفها بقدر حاجتنا إلى استبانة الحق والمصير إليه. ولكل مجتهد نصيبه من الأجر ومن الخطأ. والمهم في مثل ذلك حسن النية وسلامة القصد والسعي الحثيث بحثا عن الحق وامتلاك آلات الاجتهاد المعتبرة. وما سوى ذلك فأمره إلى الله. فهو وحده الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وإشكالية الفن في مواجهة المعتقد زادت حدتها حين ظهر ما يعرف بالالتزام الذي فرضته الواقعية الاشتراكية وخاض في سبيله الماركسيون معركة دامية مع الرمزيين والشكلانيين والرومانسيين، وساقوا الفنَّ في ركابهم ليكون بوقاً دعائيا يتخلى المبدع في سبيل ذلك عن ذاتيته وعن نوازعه الجمالية. حتى إن النقد حين يخلص للفن يسمى نقداً هارباً، يمارس أحط ألوان اللجوء السياسي لانفلاته من دوامة الواقعية الاشتراكية. وأذكر أن ناقدا من هذه النوعيات التبعية له باعه الطويل وتورطه المشين تناول هذا الموضوع، وعاب على كل الهاربين عن الالتزام الواقعي بمفهومه الاشتراكي وسمّي ذلك بهروب النقد أو باللجوؤ السياسي. ولن يستوعبنا الحديث عن هذا الموضوع، وإن كان من الأهمية بمكان لأن أدلجة الأدب والنقد طرحت في الساحة أدوات نقدية ليست من الفن في شيء وإنقاذ الفن من هذا التورط من أوجب الواجب.

ومما أشعل فتيل الصراع وزاد أوار الخلاف نشوء ما يسمى بالأدب الإسلامي وتخطيه بثبات وثقة إلى الساحة لمزاحمة النزعات المتعددة من حداثة فكرية، إلى أدب وجوديّ أو واقعي اشتراكي أو سريالي عابث أو داديٌّ هارب، وتحمس الإسلاميين لطرح مشروعهم رفع درجة الحرارة في الساحة النقدية، وحمل البعض إلى استعادة الآيات الكريمة التي تناولت الشعر والشعراء، وكذلك الأحاديث التي يبدو في ظاهرها معارضة الشعر، والوقت الآن مواتٍ، لاستعادة هذه الآيات واستخلاص الموقف الحقيقي للإسلام من الشعر والشعراء لدفع التوهم وإحقاق الحق، وعلى الذين أذعنوا للادعاءات المرجفة أن يعيدوا النظر بتجرد بحثًا عن الحق. والإسلام دين عالمي استمراري شمولي، لا يصادر حقّ الإنسان، ولا يصادم فطرته وبشريته فهو مع الفنّ ولكن من خلال ضوابط وضعها كما وضع لكلّ ظواهر الحياة ضوابطها المرنة الملائمة.

لقد جاء الإسلام عقيدة ومنهج حياة، وباشر إصلاح المجتمع الإنساني وصياغته على هدي من الكتاب والسنة، فأقرّ ما يلائم البشرية السوية، وعدّل ما يتطلب التعديل. وألغى ما لا جدوى منه. ودخل الناس في هذا الدين أفواجا تحدوهم الرغبة، ويسوقهم الشوق إلى هذا الدين المنقذ.

ومن هذا المنطلق بدأ الإسلام يحدد للشعراء طريقهم. وليس في هذا كبت لشعورهم ولا حجر على عواطفهم (١)؛ لأن دينا أراد الله له أن يحكم حياة البشر ليس غريبا أن تمتدّ يده إلى الشعر لما له من أهمية ولما يملكه من طاقات مؤثرة بلغت حدّ السلطة القادرة على تغيير مسار الأحداث.

والتغير الذي طرأ على القيم، لا بد أن يمس الشعر والشعراء؛ لأنهم جزء من هذه الأمة التي استقبلت عقيدة الإسلام(٢)

ولما كان العرب في جاهليتهم وإسلامهم يحسبون للشعر حسابه، ويذعنون لتأثيره ويتقون سهامه، وقف الإسلام منه موقفا جادًا ليواكب الدعوة

الجديدة. هذا التغيير أوهم البعض بأنه بداية ضعف للشعر ولم يلتفتوا إلى ما واجهه الشاعر في هذا الدين الجديد من ضوابط سلوكية اضطرته إلى التفكير الجاد في أدواته الفنية والدلالية، فالشاعر عاش زمنا في الجاهلية وعايش أنماطا م الحياة، وحين دخل في الإسلام تغيرت القيم والمثل، كما أن العرب انشغلوا عن الشعر بالحروب وفرغوا لجدّ الحياة من عبادة وتعلم وجهاد ونهوض بمسؤوليات قيادة ما كانوا يعرفونها من قبل، وماكانوا مهيئين لها بنظامهم القبليّ. فكان هذا التحول المفاجئ من أسباب الانشغال عن الشعر وعن روايته والعناية به، يضاف إلى ذلك انشغالهم بالقرآن من جهة وانبهارهم بروعة بيانه وقوة سلطانه ونفاذ تأثيره. فهم أساطين البيان وفرسان البلاغة، والقرآن حين جاء في ذروة ذلك هزّهم وخلخل بنيتهم الذهنية واللغوية وغيّر تصورهم للحياة.

وليس صحيحا ما يروجه المتسرعون من أن الشعر ضعف، وأنّ الإسلام تعمد إضعاف جانب الشعر ليكون للقرآن مجاله الأرحب في دنيا التناول والدرس. ففي صدر الإسلام ذكر ابن سلاّم أكثر من عشرين شاعرا إسلاميا عدّهم من الفحول. وإذا كانت أدوات النقد في تلك الفترة تصل بالفحول إلى هذا الكمّ فإنّ الشعر حافظ على مستواه. ولكن لم تبق له الصدارة ولم يستقل بالسلطان.

وإذا كنا لا نمانع في دعوى ضعف الشعر فإننا نريد مبررات أخرى ليس من بينها تعمُّد الإسلام لإضعاف الشعر وتنحيته، ولبعض الدارسين رؤية حول ما يشاع من ضعف الشعر مؤداها: أن لكلّ ظاهرة دورة كدورة التاريخ، وأن الشعر أنهى دورته التصاعدية بظهور الإسلام؛ فأخذ بالانحدار ليبدأ دورة تصاعدية أخرى بالغًا ذروته على يد جرير والفرزدق ومن واكبهم أو جاء بعدهم. ولسنا مع هذه الرؤية. وإن كان لها شيء من المعقولية، وهؤلاء الدارسون يرون أنّ ظهور الإسلام زامن نهاية الدورة التصاعدية ولم يكن الإسلام سببا مباشرا في ضعف الشعر ولكن تزامنه مع نهاية الدورة جعل المتسرعين في أحكامهم يدعون أن هذا الضعف من مقاصد الإسلام.

والمجمعون على ضعف الشعر يختلفون في التماس الأسباب، فهل الشعر كما يقول البعض نكدٌ لا يقوى إلا بالكذب، أم أن الإسلام قلّل من قيمة الشعر، فانصرف الناس عنه؛ والحقّ أن الإسلام حين شد مهمة الشاعر لم يقف حائلا دون الإبداع، وإنما وقف حائلاً دون طرق الأغراض التي لا تتفق مع المقتضى الإسلامي وهذا الموقف كاف لزعزعة الشاعر وارتباكه.

ولم يكن هدف الإسلام أن يضعف الشعر بل الصحيح أن الإسلام تهمّه قوة الشعر وفحولته؛ لأنه سلاح رديف في معركته مع المشركين، على أن هناك من يستبعد ضعف الشعر في ظل الإسلام ويرى أن في الأمر تحاملاً. ومع هذا التباين في وجهات النظر فإن التأثير واضح في الشكل وفي المضمون. أما تأثيره في الشكل فإن القرآن الكريم الذي نزل على محمد بلسان عربي مبين يقرؤه القراء وتسمعه العامة. له تأثيره الواضح على لغة التخاطب وأسلوب العرض، وطريقة التناول وترتيب القضايا حسب الأهمية.

والشعراء إن لم يكونوا قراءً فإنّهم من الذين يستمعون ويتذوقون ويختزنون الألفاظ والتراكيب. والشاعر يقتات من حصيلته اللغوية، ولا يعلق بذهنه إلا ما يعجبه ولا شك أن المسلم مأخوذ بروعة القرآن البيانية، وإذا فإن الشاعر المسلم حين يباشر الابداع يستمدّ من ذاكرته تلك التراكيب والمفردات التي علقت بذهنه، هذا نوع من التأثير على لغة الشعر، وهل يكون هذا التأثير ضعفا في لغة الشعر؛ بحيث نفرق بين لغة القرآن ولغة الشعر كما فرقنا بين لغة النثر ولغة الشعر، وإذا كان القرآن مؤثرا في لغة الشعر فإنّه مؤثر في الدلالة.

والشاعر المسلم يعبر عن مجتمع إسلامي. والمجتمع الإسلامي صيغ صياغة جديدة على بينة من الأمر وعلى ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وإذًا فلا بد أن تكون مضامين الشعر زاخرة بالمثل والقيم الإسلامية (٣) هذا التأثر عدّه البعض تحولاً في لغة الشعر ودلالته وخروجا بالشعر عن خصوصيته. ولا أحسب لذلك وجهًا من الصحة، لأن القرآن لو لم يؤثر مباشرة في الشعر لأثرت فيه التحولات الحضارية التي أسهمت في تغيير وجه الحياة.

وتحول العرب من البداوة إلى الحضارة من أقوى المؤثرات في لغة الشعر والنثر ودلالتها، وإذا كان الإسلام قد غيّر أوجه الحياة فليس بدعاً أن تظهر بصماته على أوجه الفن وهذه البصمات ليست دليل ضعف.

وحين نتناول بالحديث موقف القرآن الكريم والرسول ﷺ من الشعر، نجد إشكالية اختلفت فيها الآراء وتفرقت السبلُ، وخاض لجتها من لا يحسن الوقوف على الشاهد. ولعلنا لكي ندلل على التدخّل المباشر لتوجيه الفنّ وتطهيره مما علق به من خرافات نشير إلى أنه مما استقر في الأذهان من خرافات الجاهلية ارتباط الشعر بالجنّ والسحر استنادا إلى براعة الشاعر وقوة تأثيره وسرعة استجابة الناس له. ومن هنا جاء الربط عند الجاهليين بين الرسول والجنّ من جهة. وبينه وبين السحر من جهة أخرى.

وهذه الاتهامات تجعله ـ حسب ما يدعون ـ شاعرا مؤثرا في الناس، وتجعله مدعيا التكليف كاذبا فيما يزعم من أن القرآن ينزل عليه من السماء على حد زعمهم ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ وجاء جدل القرآن لتكذيب هذا الافتراء وتبرئة الرسول من هذه الاتهامات.

وَربْطُ المشركين بين الرسول والشعر إنما جاء محاولة لإبطال الرسالة، واتهام الرسول بالتقوّل على الله. وليس كما يظنّ البعض للتقليل من شأن الشعر أو الرفع منه فكلّ ذلك لم يردْ على بال أحد. والمشركون يرفعون من مكانة الشاعر ويحتفلون بنبوغه ويتقون الشعر ويخافونه، ولكنّهم حين وصفوا الرسول بالشاعرية أرادوا فصله عن الاتصال بالسماء. وإذا كان الرسول ﷺ شاعراً ــ كما يزعمون ـ فلا بد أن تتنزل عليه الشياطين بدل الملائكة، وهذا ما نفاه البارئ ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿هل أنبئكم على من تَنَزَّل الشياطين، تنَزّل على كل أفاك أثيم﴾ (٤).

ومحمد ﷺ رسولٌ من عند الله فليس بأفاك وليس بأثيم وليس بشاعر ولا كاهن ولا مجنون. وهذا التخبط في الاتهام يوميٌ بذهول المشركين وانبهارهم وضياع رشدهم، ولم يكن هدفهم منفصلا عن مهمة تكذيب اتصال الرسول بالوحي، وليكن بعد ذلك ما يشاء؛ ليكن شاعراً أو كاهنا أو ساحرا أو مجنونا وليكن ملكا أو غير ذلك.

وفي سياق هذا الخوف وهذا التخبط اتهموا الرسول بالشاعرية لنفي ارتباطه بالوحي، وربط تأثيره بتأثير الشعر على المتلقين. فهم يؤمنون بتأثير الرسول ويعرفون حجم تأثير الشعر، ومن ثم ربطوا بين محمد والشعر.

والسؤال القائم هل يلزم من نفي الشاعرية عن الرسول الغض من قيمة الشعر أو الإقلال من قيمة الشعراء، وهل هناك تلازم بين هذا وذاك من أي وجه؟.

أم أنّ ذلك النفي للشاعرية يرتبط بدعوى كاذبة؟ وإذا لزم من هذا الغض من قيمة الشعر لزم أن تكون أمية الرسول وعدم معرفته للكتابة غضا من قيمة العلماء والكتّاب، فالرسول ـ عليه السلام، أميٌّ ـ والأمية نفي عن الرسول ـ عليه السلام ــ «الكتابة». فلم يقل أحدٌ إنّ الإسلام ضدُّ الشعر بهذه الأدلة ولم يقل أحد إنّ الإسلام ضدُّ القراءة والكتابة بالأدلة نفسها.

فالقرآن نفى عن الرسول ـ عليه السلام الصلاة ـ قول الشعر «والكتابة»

وليس في ذلك تنقيص من قيمتهما لأنه أراد أن يثبت إعجازا وينفي اتهاما، كما أن شرف تكليفه بالرسالة غاية في الشرف لا مزيد من ورائه. والرسول مبلّغ عن الله لا ينطق عن الهوى، أما الشاعر فمبلغٌ عن نفسه، فالشاعرية قدرة ذاتية أما الرسالة فتكليف رباني.

ومن ثم فنفي الشاعرية عن الرسول ليست لمجرد تنزيهه فقط، وإنما لارتباط الشعر بتكذيب الجاهليين للرسول وادعاء أنه شاعر وأن ما أتى به هو الشعر.

والقرآن عرض للشعر من خلال موقفين. أحدهما: نفي الشاعرية عن الرسول. والآخر: للتفريق بين فئتين من الشعراء. وحين نؤكد على أن نفي الشاعرية عن الرسول إنما كان لردّ هذه الشبهة، فإنّ هذا لا يمنع من أن نؤكد أيضا أن الشاعرية ليست خصلة لا يكمل المجد إلا بها، فالشعر موهبة، والفصاحة موهبة وسائر الخصال منحٌ من الله يخصُّ بها من يشاء من عباده، والعبرة في توجيه هذه القدرات. فإن وجهت إلى الخير كانت خيرا وإن وجهت إلى الشر كانت شرًا، أما الرسالة فإنها تكليف من الله لمن يصطفي من خلْقه. والرسول ـ عليه السلام ـ لا ينطق عن الهوى، وليس مدعيا ولا متقولاً، ودعوى المشركين بأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ شاعرٌ لم تنصبَّ على الإزراء به، وإنما أرادوا تكذيب دعوى التكليف وإيجاد مبرر للتأثير الذي يتركه في نفوس الناس عند سماع القرآن ولإبطال دعوى اتصاله بالسماء عبر الوحي والمعراج وربطه بشياطين الشعر الذين يؤمنون بتأثيرهم على الشعراء. ومن هنا جاء التأكيد على نفي الشاعرية عنه ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾(٥). ﴿وما هو بقول شاعر﴾(٦).

فالشعر لا ينبغي لرسول مكلف من عند الله، والقرآن المنزل ليس من تقوّل البشر. فنفي الشعر عن القرآن الكريم لا يعني ذما للشعر مبنى أو غرضا بل إن القرآن الكريم سما بنفسه وآياته المعجزة عن الشعر (٧) لينفصل في سياقه عن أيّ إبداع بشريّ ولا يهمه بَعْدُ أن يكون الشعر في ذروة الأهمية أو لا يكون.

أما ذمُّ الشعراء في آيات ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ (٨) فذلك خاصٌّ بفئة معينة منهم، بدليل الاستثناء، وبدليل أنّه لا يشمل الشاعر وحده بل يتناول «الشاعر» و«الشعر» و«المتلقي» إذا حملوا صفات معينة نص عليها القرآن. ولا يمكن تبعاً لذلك أن نجعل هذه الآيات لمطلق الذم، لأنّ القرآن وصف المذمومين ووصف المحمودين وفصّل القول في ذلك.

فالشاعر المذموم لا بد أن يكون ضالاً يهيم في أودية التيه، ولا بد أن يكون كاذبا يقول ما لا يفعل، والغواية صفة ذم لصيقة بالمتبعين لهذه الفئة الضالة من الشعراء، الذين يسعون وراءهم ويحرضونهم على فاسد القول ويملأون أجوافهم بهذا الشعر الفاسد.

وإذا فالذمُّ ليس لذات الشعر، بل لأمور إذا ارتبط بها الشاعر وجاء شعره مصورا لهذا الارتباط دخل في دائرة الذم. ومن ثم فإنّ الذمَّ شمل غير الشعراء؛ لأن التابعين لهم ليسوا بشعراء، وقد وصفهم الله بأنهم غاوون.

أما الفريق الآخر من الشعراء فهم المؤمنون الذين يعملون الصالحات ويذكرون الله كثيرا وينتصرون بعد الظلم. وبهذا التمايز بين فئتين من الشعراء نصل إلى نتيجة مؤداها:

أولاً: أن المشركين حين بهرهم القرآن ومنعهم كفرهم من الإيمان به تخلّصوا من ذلك بدعوى أن الرسول شاعر يؤثر في المتلقّي مثلما يؤثر الشاعر.

ثانيا: أن الشعراء الذين استخدموا شعرهم في هجاء الرسول ﷺ وهجاء المسلمين موصوفون بهذه الصفات المناسبة لخطيئتهم؛ لأنهم أعداءٌ جردوا في وجه الإسلام سلاح الكلمة الخبيثة.

ثالثا: أن الشعراء الذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات ويذكرون الله كثيرا وينتصرون للحق، لا يدخلون دائرة الذم بل هم مجاهدون في سبيل الله مثلهم مثل المجاهدين بالسلاح.

والخلاصة أن القرآن الكريم لم يقفْ من الشعر والشعراء موقفا عدائيا كما يتصور البعض وإنما فصّل في ذلك لتمييز الخبيث من الطيب.

أما السنة فهناك من يحمل بعض الأحاديث على تحريم الشعر حفظا ورواية. فقد أثار بعض المتشددين في هذا المجال ما جاء في الصحيح «لأن يمتلئ جوف الرجل قيحاً حتى يريه خيرٌ من أن يمتلئ شعرا» ورأى أن ما يستفاد من هذا الحديث تحريم حفظ الشعر.

قلت: مصيبتنا في الذين يحفظون ولا يعون ويَفْصلون الأثر من سياقه على حد «ولا تقربوا الصلاة» ولا يعتبرون العمومَ والخصوص ولا يحيطون بأطراف المسألة وحيثياتها ولا يحاولون حمل الخاص على العام.

فالحديث صحيح وواضح الدلالة. ولكن دعنا نلمّ به مقرونا بسياقه وبملابساته وبمحددات عمومه. فعمرو بن الشَّريد ـ رضي الله عنه ـ أنشد الرسول ﷺ من حفظه مائة بيت لشاعر واحد، ومن ثم فجوفه ملئ بالشعر على مسمع ومرأى من رسول الله ﷺ، ثم إن رواية أبي هريرة لهذا الحديث يحدد عمومها حديث آخر لأبي هريرة نفسه قال: قال رسول الله ﷺ: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل، وكاد ابن أبي الصلت يُسلم. والمقصود بالكلمة الشعر، وقُرب ابن أبي الصلت من الإسلام بفضل شعره.

كما أن حديث أبي هريرة يرتبط بمناسبة جاءت في رواية أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ: خذوا الشيطان، أو أمسكوا الشيطان لأن يمتلئ جوف الرجل قيحا خيرٌ له من أن يمتلئ شعرا.

فهنا مناسبة ترتبط بشاعر ينشد فحشاً. ولسنا بحاجة إلى الأخذ بما ذهب إليه بعض العلماء من أن المقصود الشعر الذي هجيَ به رسول الله ﷺ.

فهذا لا يحتمله النصُّ ولا يقتضيه، كما أننا لسنا بحاجة إلى أيّ تبرير آخر فالشعر المذموم صاحبه هو الشعر البذيئ الذي يشغل عن الواجب ولا يخدم الحقّ، وفي ذلك تحديد لعموم الحديث الذي احتج به البعض ليأتي بنيان الشعر من القواعد، وإذا كان الرسول قد أكرم كعب بن زهير وخلع عليه بُردته، ودعا لحسان ودفعه إلى المنافحة عن الإسلام فإنّه في المقابل أهدر دم بعض الشعراء ولم يقبل منهم صرفا ولا عدلا، فإلى أي التصرفين نذهب وبأيهما نأخذ، إنّ هذا يقتضينا التفصيل في الأمر وعدم الإجمال، وتحري الدقة في الأحكام.

والرسول الكريم الذي يتلقى وحي السماء وينفّذ أمر الله انسجم موقفه من الشعر مع الموقف القرآني. ومع أنه أفصح العرب فلم يكن شاعراً ولا ينبغي له أن ينشئ الشعر، ولكنه استمع إليه وكافأ عليه وعفا عن المعتذرين به (٩) وسرّه الحسن منه وشهد له بالحق واستشهد بالشعر واستزاد منه.

وحث الشعراء على التصدي للمشركين (١٠) ودعا للشعراء بالتأييد (١١) وتمثل الشعر(١٢) كما وجه الشعراء إلى نظم الشعر لأغراض تخدم الرسالة (١٣) وفي المقابل أهدر دم بعض الشعراء ورفع من شأن آخرين. ومن هنا نجد أن أوهامًا كثيرة وقع فيها بعض الدارسين لا يحتملها موقف الإسلام من الشعر.

هذه الإشكالية جعلت بعض الدارسين يذْعن لهذه المقولة ويقطع بأن الإسلام ضدُّ الشعر؛ لأنّه فنٌّ والفنُّ لا ينسجم مع عقيدة جادة. والمنصفون

من النقاد والدارسين يتجاوزون الأحكام المجهزة وينفذون في أعماق الدلالة لينتزعوا بأنفسهم حقيقة موقف الإسلام من الفن عامة ومن الشعر على وجه الخصوص.

وأيًا ما كان الأمر فإن هذه الإشكالية ستظلُّ موضع جدل بين كافة الأدباء. فالشعر ضعف في صدر الإسلام. وحسان بن ثابت له شعرٌ جاهلي بدت فيه الفحولة وله شعر إسلامي لم يكن في مستوى شعره الجاهلي، وليس هناك سبب إلا دخوله في الإسلام هكذا يقول النقاد الذين يقطعون بتأثير الإسلام على الشعر!! وهي مقولة تحتاج إلى مزيد من التركيز. فالضعف حيث يكون ليس شرطا أن يكون للإسلام دورٌ مباشرٌ فيه.

ألا يمكن أن نقول إن الأدوات الفنية والبعد الدلالي الذي تهيأ لحسان في الجاهلية لم يتهيأ له في الإسلام، ومن ثم احتاج إلى وقت طويل ليتكيف مع هذه البيئة الجديدة.

أشياء كثيرة تناولها النقاد والدارسون. ولكن ما زال الموضوع بحاجة إلى مزيد من الإضافات لتحديد موقف الإسلام من الشعر وتبرير ما اعترى الشعر من ضعف في مطلع البعثة النبوية. وإذا تجاوزنا مشروعية الشعر كنوع من أنواع الفن قوامه القول المتميز بشكله ولغته وصوره واجهتنا إشكالية أخرى لا تتعلق بالمشروعية ولا بالمدلول وإنما تذهب إلى اللغة والشكل وطريقة الأداء والتناول.

وقد ثارت هذه الإشكالية بين الإسلاميين ودعاة التجديد.

وبعض الحداثيين ينادي بحرية اللغة على اعتبار أنها ظاهرة اجتماعية تتطور مع المجتمع وتتبدل كما تتبدل مظاهر الحياة. فالعامية مثلا لون من ألوان التطور ولا مجال لرفضها أو الإقلال من شأنها؛ لأنها لغة الأمة ومن حقِّ هذه الأمة أن تبدع من خلالها وأن تقضي على ثنائية اللغة لا بتطويق العامية وعزلها عن مجال الإبداع ولكن بتلاحمها مع ما بقي من الفصحى.

وليست الخطرة في مدلول المفردة وصياغتها بل يتعدى ذلك إلى النحو العربي.

وقضية الفصحى والعامية بدأت منذ أن تم الاتصال بالغرب والأخذ بمناهجه النقدية وأسلوب تعامله مع لغته ونحن نعرف أن الغرب لا يهتم باللغة كأصل ثابت له قواعده وضوابطه وإنما ينظر إليها كظاهرة اجتماعية تتطور كسائر الظواهر الاجتماعية وتتبدل لكي تكون قادرة على الاستجابة لكل المستجدات.

أما اللغة العربية فقد أعطاها الإسلام سماتها وخصائصها، فنزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين منحها الثبات ولم تعد كما يتصور البعض ظاهرة اجتماعية قابلة للتطوير والتبديل والاستبدال إلا في حدود الاشتقاق، والنحت، والتعريب، وهي منافذ تمنحها مرونة واتساعا وثراء.

وعلماء النحو والصرف واللغة والبلاغة اتخذوا من لغة القرآن مادة للوصف والمعيارية ولم يعد بعد ذلك مجالٌ للتبديل أو التحوير أو التحريف.

فاللغة العربية المعتبرة في مجال الفن هي لغة القرآن بكل ما تقتضيه من ضوابط نحوية وصرفية ولغوية، وأي تحرف لنسف هذه الضوابط يعدّ مواجهة للإسلام، وإحلال العامية محلّ الفصحى في مجال الإبداع الشعري يعني عزل لغة القرآن وتجميدها والقضاء على سلطانها، ومهما برّر المبررون وعلّل المعللون فالمواجهة ليست مع اللغة ولكنها مع القرآن الذي نزل بهذه اللغة وأعطاها الخلود والاستمرار، ومن ثم فإن إشكالية لغة الشعر تأخذ بعدا دينيا وفنيا. وليست الإشكالية كما يتصور البعض قضية فنية لا دخل للإسلام فيها.

فالتصدي للغة العربية الفصحى تصد للقرآن الذي نزل بها، وحسن النية والتبرير الذي يمارسه البعض عن جهل أو تعمد لا يُخلص القضية من مرتكزها الديني الخالص. وقد أعطى كثير من الباحثين والمفكرين هذه القضية مزيدا من العناية فألفت الكتب حول قضية العامية والفصحى (١٤)

أما عن الصياغة وما يثار حول الرمز والأسطورة والغموض، فقضية أخرى لها جانب فنيٌّ واسع يستطيع المبدع والناقد أن يتصرفا في أمدائها بحرية وأن يقولا رأيهما وفق ما تمليه المرحلة ووفق ما يتطلبه الواقع ولها جانبٌ دينيٌّ يحتاج إلى أناة وتروٍّ ومراعاة للمقتضى الإسلامي.

ويجب على الدارس لهذه الظواهر ألا يخلط بين المقتضى الفني المستظل بظل الإسلام والمقتضى الفني الذي لا يضع أي اعتبار للمقتضى الديني. وأحسب أن الحديث عن الرمز والأسطورة والغموض لكي يكون مجديًا أن نحيد به عن التعميم والمجازفة في الأحكام. لأن الإسلام لا يمانع من الإلمام بهذه الظواهر ولكنه لا يترك الحبل على الغارب وتوسيع مقتضى الدليل أوقع بعض المفسرين في جنح موجعة فحين سمعوا قول الرسول (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) ملؤوا كتب التفسير بالإسرائيليات وعرضوا كتبهم للمؤاخذة وجنحوا بالتفسير عن مساره السليم.

الأمر الذي فتح باب النقد على مصراعيه للمستشرقين والمشككين على اعتبار أن هذه الإسرائيليات جزء من الدلالة القرآنية. وتفصيل القول في موقف الإسلام من هذه الظواهر يحملنا على الدخول في مجالات بعيدة عن صلب الموضوع(١٥).

وشيءٌ آخر يلتحم مع هذه الظواهر ذلك هو موسيقى الشعر وهل تكون بحور الخليل محدّدة لهذه الموسيقى أم أن الشاعر في حِلّ من ذلك، ومن حقه أن يتخذ من الشكل ما يعجبه، والذي أراه أن قضية الشكل قضية ذوقية فنية تفرضها ذائقة الجماعة والمتلقية، والشاعر في حل من ذلك فله أن يتخذ الشكل الذي يربطه بالفن الشعري ويشدُّ آصرته بالمتلقي، وهذا لا يعني أنه من السهل إدارة الظهر لهذا الشكل الموسيقي الذي اكتشفه الخليل؛ لأنه أعني الشكل لم يأت اعتباطا بل كان نتيجة تمحيص وتطوير أديا في النهاية إلى هذا المستوى المتكامل.

بقي أن نقول إن الإسلام لا يباشر التدخل في مثل هذه الظواهر ويدعها لتطور الذائقة وحاجة المتلقي. والحكم المطلق فيها للفن وأدواته ومميزاته فالشعر غير النثر. ولا يمكن إزالة الفوارق بينهما. وصدق من قال إن الشعر كالرقص. والنثر كالمشي ملمحا إلى هدفين: أحدهما أن الرقص له ضوابطه وله غايته الإمتاعية، بينما المشي أقل ضوابط وله غايتُه النفعية.

هوامش

(١) «الشعر في موكب الدعوة» د/ صادق محمد ص ٣

(٢) «الشعر في الإسلام» د/ أحمد الغول ص ١٦.

(٣) راجع للمزيد الكتب التالية:

- أثر القرآن والحديث في شعر أبي العتاهية للدكتور محمد الهرفي
- أثر الإسلام في شعر الفرزدق

للدكتور مصطفى عبد الواحد.

(٤) سورة الشعراء الآيتان ٢٢١، ٢٢٢.

(٥) سورة يس آية ٣٦

(٦) سورة الحاقة آية ٤٠

(٧) الشعر في الإسلام تأليف الدكتور أحمد الغول / مطابع صوت الخليج

(٨) سورة الشعراء: الآيات (٢٢٤ إلى ٢٢٧)

(٩) بلوغ الأرب للألوسي ج ٣ ص ١٣٤

(١٠) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ ص ٤٦ ومسند أحمد ج ٣ ص ٤٥٦ وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٥٥.

(١١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر جـ٣ ص ٩٠٠

(١٢) الاستيعاب لابن عبد البر جـ١ ص ٥٥. والإصابة لابن حجر جـ١ ص ١٣٣ والبداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ١٨٧ مجلد ٣ ص ٣١٥.

(١٣) دور الشعر في معركة الدعوة ص ٢٥٦ للأستاذ / عبد الله خليل إبراهيم

(١٤) لمزيد من المعلومات راجع كتاب الدكتور / مرزوق بن صنيتان بن تنباك عن قضية الفصحى والعامية وعدد آخر من الكتب حول هذا الموضوع.